خواطر في اللغة

الأستاذ شفيق جبري

أقلّب النظر من حينٍ إلى آخر في معجمٍ من معجمات اللغة ، والمعجم الذي ألِفته من سنين طويلة إنما هو القاموس المحيط للفيروزابادي ، ولقد تخطر ببالي خواطر في خلال هذا التقليب فأدوّن بعضها ، من هذه الخواطر مروري بطائفةٍ من بقايا الفصاح أو بصورٍ لطيفةٍ قد بطل استعمالها في عصرنا هذا ، أو بكثرة المصادر وغلبة بعضها على بعض ، أو بتناقض المعاني في بعض مشتقّات مادّة من الموادّ ، أو بشقاوة بعض الألفاظ وسعادتها ، أو بموت بعض الألفـــاظ ، أو بغير ذلك من الأمور التي لا سبيل إلى إحصائها ، وإني لأسف الأسف كلّه على أني لست من علماء اللغة حتى أهتدي إلى الوقوف على أسرار اللغة وخصائصها ؛ وإذا عجزت عن مثل الوقوف فقد يرضيني أن أدوّن خواطري مكتفياً بالإعراب عنها من ناحية وبالإعراب عن عجزي في هذا المجال من ناحية ثانية .

من بقايا الفصاح مادّة تشيطن ، فالشيطان معروف ، وهو كلّ عاتٍ متمرّدٍ من إنس أو جنّ أو دابّة ، وتشيطن فعل فعله ، فهذه المادّة فصيحة وقد بقي استعمالها في لغة العامّة حتى يومنا هذا ، وأكثر ما تطلق على الصبيان الصغار فإذا قالوا في صبّي : يتشيطن ، أرادوا بذلك أنه مثل الشيطان ، وقد اشتقّوا من هذه المادّة صورة لطيفة فقالوا : شيطان الفلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهم يريدون بذلك : العطش ، إلا أن هذه الصورة لم تبق بنا حاجة اليها في يومنا ، فالماء في الفلا عادةً قليل نادر ، فإذا كنّوا عن العطش بشيطان الفلا فالكناية في محلها ، فكأنّ العطش في الفلا إنما هو عاتٍ ، متمرّدٌ مثل الشيطان . أمّا في عصرنا فالسفر في الفلا قليل ، وإذا لم يكن قليلاً فقد يكون بالسيّارات ، والمسافر يستطيع أن يقطع الفلوات الطويلة ومعه الماء في سيّارته ليشرب منه إذا عطش . وهكذا نجد أن بعض الصور الشعرية تبطل ببطلان الحاجة إلى استعمالها ، حتّى لو كانت هذه الصور طريفة .

وإذا انتقلنا من بقايا الفصاح ومن بعض الصور اللطيفة إلى كثرة المصادر وجدنا أن من مصادر قرأ : قَرْءاً وقراءة وقرآنا . فالقرء كاد يختفي في الاستعمال فنكاد لا نجد له أثراً في كتابتنا ، والقرآنُ غلب على كتاب الله عزّ وجلّ فهو التنزيل ، وقد جاء بمعنى القراءة في آية من محكمات الآيات : «فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه»[1] أي قراءته ، كما جاء في شعر رُثي به عثمان رضي الله تعالى عنه :

ضَحّوا بأشمطَ عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقــرآنا

إلاّ أن هذا الاستعمال قد انفرد به الذكر الحكيم ، فلا يقول أحدنا في هذا اليوم : فلان حسن القرآن ، أي القراءة ؛ على أنا إذا قلنا هذا القول فقد يزداد قولنا شرفاً لأنه مقتبس من كتاب الله . فلم يبق من مصادر قرأ الثلاثة مصدر مستعمل إلاّ القراءة .

وما دمنا نتكلم على مصادر قرأ فلابأس بذكر مصادر كتب ، يقال : كتبه كَتْباً وكِتاباً ، هذا مادوّنه صاحب القاموس المحيط ، فالكَتْب قلّ استعماله حتى كاد يختفي كما قلّ استعمال القَرْء . بقي الكتاب ، وهو المصدر الثاني وقد غلب هذا المصدر على ما يكتب فيه ، على أنه قد جاء في كتاب الله تعالى بمعنى الفَرْض : «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً»[2] ، كما

(١) القيامة ٧٥/١٨ (٢) النساء ٤/١٠٢

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جاء بمعنى المكتوب على نحو ماذكره بعض المفسّرين : « وكلّ شيء أحصيناه كتاباً »(١) وقد استُعمل الكتاب بمعنى الكتابة في بعض العصور على نحو ما جاء في شعر المتنبي :

حتّى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
فاكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنّما نحن للأسياف كالخدم

أي بعد الكتابة به ، والضمير في به يرجع إلى السيف . أمّا اليوم فلا نجد من يقول : فلان حسن الكتاب أي الكتابة ، فهذا المصدر استقلّ في معناه وانفرد فأصبح له معنى خاصّ .

ومن هذا القبيل على ما نعتقد مادّة : الحياة ، فالحيوان والحياة في اللغة بمعنى واحد فهما نقيض الموت ، إلاّ أن الحياة انفردت بمعنى ولفظة الحيوان انفردت بمعنى آخر ، فلا نجد من يستعمل الحيوان بمعنى الحياة ، وقد وردت في التنزيل بمعنى الحياة ، ولا أذكر الآية الشريفة التي وردت فيها (٢) ، فالحيوان يطلق في المصطلح على جنس الحيّ ولا يرضى أحد أن يقال فيه إنه حيوان فهذه اللفظة غايةٌ في الذمّ ، وهكذا نجد أن اللفظتين : الحياة والحيوان ، قد انفردت كل واحدةٍ منهما بمعنى خاص على الرغم من اشتراكهما في الأصل في معنى واحد .

فالذي يتبيّن لنا أن تنازع البقاء يجري على المصادر فيخفي منها بعضها ، ويغلّب منها بعضاً على بعض ويجعل لأحدها معنى مستقلاً لايشاركه فيه أخوه . ولسنا نعلم هل بحث علماء اللغة في القديم عن السرّ في كثرة المصادر ، فهل نعرف ماهو السبب في أن لبعض الأفعال أكثر من مصدر ، فإذا لم يبحثوا هذا البحث فهل يرشدنا علماء اللغة في عصرنا إلى أسرار هذا الامر .

وإذا فرغنا من كثرة المصادر ومن غلبة بعضها على بعض فلننتقل إلى

(١) النبأ ٢٩/٧٨

(٢) الآية هي : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » سورة العنكبوت ، الآية : ٦٤ «المجلة»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكلام على تضادّ المعاني في مشتقات مادّة من الموادّ ، يقال : الهشم كسر الشيء اليابس أو الأجوف أو كسر العظام أو الرأس خاصّة أو الوجه أو الأنف أو كل شيء ، يقال : هشمه يهشمه بالكسر فهو مهشوم وهشيم ، كل هذا واضح لا إشكال فيه . ولكن الإشكال يأتي إذا علمنا أن معنى تهشّم فلاناً : أكرمه وعظّمه كهشّمه ، فما هي الصلة بين كسر الشيء اليابس وبين الإكرام والتعظيم ، أفلا نرى شيئاً من التناقض بين هذين المعنيين المشتقين من مادّة واحدة وهي الهشم ؟ من هنا نرى حاجتنا إلى معجم يبيّن لنا تاريخ الألفاظ وميلادها أو موتها ، ويبيّن لنا ارتباط معاني هذه الألفاظ بعضها ببعض ، فنحن نمرّ بقولنا : تهشّم فلاناً أي أكرمه وعظّمه ولكنا لا نهتدي إلى سرّ هذا المعنى وأصله . وكيف كان الأمر فما نظن أن أحداً في هذا العصر يستعمل : تهشّم فلاناً بمعنى أكرمه وعظّمه ، وإنما نستغني عن هذه المادّة ونكتفي بقولنا : أكرمه وعظّمه . .

والطريف بعد هذا كله انتقال بعض الألفاظ من سعادتها إلى شقاوتها ، فالعصابة في اللغة كالعصبة ، بالضم ، من الرجال والخيل والطير مابين العشرة إلى الأربعين . وقد وردت في شعر حسّان :

لله درّ عصابـــة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأوّل

إلاّ أن العصابة التي وردت في هذا الشعر كانت تطلق على ملوك غسّان ، وما أدرانا بمجالس أولئك الملوك ، فجبّلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم كان مجلسه ـ على نحو ما جاء في الأغاني ـ يضم خمس روميات يغنين بالروميـة بالبرابط ، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من أهل العرب من أهل مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضّة والذهب ، وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتياً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإن كان صائفاً بطّن بالثلج ، إلى آخر ما جاء في هذا الوصف ، مع حسن الوجه وحسن الحديث . . فعلى مثل هذه الطبقة أُطلقت العصابة في القديم . أمّا اليوم فإنها تطلق على جماعة من المجرمين والقتلة واللصوص وأصحاب السيرة المذمومة ، فإذا قلنا في عصرنا : قبضت الحكومة على العصابة فنحن نفهم أن هذه العصابة من الذين قتلوا أو سرقوا أو عاثوا في الأرض فساداً . على أن العصابات قد تطلق أيضاً على جماعة من الثوّار والمتمردين الذين يدافعون عن حقوق أوطانهم وليس من الضروري أن يكونوا من المجرمين ولكن الغالب على هذه اللفظة : العصابة أنها سعدت في عصر من العصور ثم شقيت في عصرٍ آخر . فما أغرب اللغة وما أعجب حياتها ؟ .

وأخيراً فلنشهد موت بعض الألفاظ ، يقال : تغضّفت علينا الدنيا : كثر خيرها وأقبلت ، فهل نجد أحداً في هذا العصر يستعمل : تغضّفت علينا الدنيا ، وهل السبب في ذلك ثقل هذه اللفظة أم غرابتها ؟. إن العصر الذي نعيش فيه إنما هو عصر السرعة ، فلا يتسع وقت أحدنا لفتح المعجمات والتفتيش عن معنى مادّة غريبة وإنما نميل إلى أسهل الألفاظ وأقربها من فهمنا ، فإذا قال أحدنا في هذا اليوم كثر خير الدنيا وأقبلت ، فهم الناس هذا القول من أيسر الطرق ، أمّا إذا قلنا : تغضّفت علينا الدنيا أشكل عليهم فهمُ هذه المادة ، فالعصر عصر الإيجاز في كل شيء ولا سيّما في الأدب . وإذا قابلنا بين الخطب في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم وبين الخطب والرسائل التي حُبّرت في عصر اتساع مذاهب البيان كالرسائل التي جاءت على لسان صلاح الدين مثلاً في فتح بعض الأمصار عرفنا مبلغ البساطة في التعبير والإيجاز في البيان .

ما أكثر الخواطر التي تخطر بالبال في مطالعة معجمات اللغة !

« شفيق جبري »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net